الدعاء والقدر

كتبه: بأس الفرد

لكل أجل كتاب، وبعد:

استشكل بعض جهال المتصوفة والمتفلسفة الدعاءَ إذ ظنوه تحصيل حاصل، حتى استكبروا عن دعاء الله ويئسوا من جوابه، والجواب عليهم من وجوه:

الأول: أنَّ الدعاء من قدر الله كذلك، روى الترمذي عن ابن أبي خزامة عن أبيه أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقيها وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئا؟ فقال: هي من قدر الله".

الثاني وهو متعلق بالأول: قول عبد القادر الجيلاني: "نازعت أقدار الحق بالحق للحق"، وهذا تمام عقل المرءِ، إذ الاستسلام للقدرِ والرضا بالعدم مما لا يصنعه ذو نهية، وإنما الواجب منازعة الأقدار بالأقدار، والأسباب بالأسباب، كما قال الأول:

أخط مع الدهر إذا ما خطا وأجر مع الدهر كما يجري

قال ابن القيم في طريق الهجرتين: "الحكم الكوني القدري الذي للعبد فيه كسب واختيار وإرادة، والذي حكم به يسخطه ويبغضه ويذم عليه. فهذا

حقه أن ينازع ويدافع بكل ممكن ولا يسالم البتة، بل ينازع بالحكم الكوني أيضا، فينازع حكم الحق بالحق للحق، ويدافع به وله، كما قال شيخ العارفين في وقته عبد القادر الجيلي: "الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي فيه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والعارف من يكون منازعا للقدر، لا واقفا مع القدر".

فإن ضاق ذرعك عن هذا الكلام وفهمه فتأمل قول عمر بن الخطاب، وقد عوتب على فراره من الطاعون، فقيل له: أتفر من قدر الله؟ فقال: "نفر من قدر الله إلى قدر الله".

ثم كيف ينكر هذا الكلام من لا بقاء له في هذا العالم إلا به، ولا تتم له مصلحة إلا بموجبه. فإنه إذا جاءه قدر من الجوع والعطش و البرد نازعه، وترك الانقياد له ومسالمته، ودفع بقدر آخر من الأكل والشرب واللباس، فقد دفع قدر الله بقدره.

وهكذا إذا وقع الحريق في داره فهو بقدر الله، فما باله لا يستسلم له ويسالمه ويتلماه بالإذعان؟ بل ينازعه ويدافعه بالماء والتراب وغيره حتى يطفئ قدر الله بقدر الله، وما خرج في ذلك عن قدر الله.

فيكون قد دفع القدر بالقدر، ونازع الحكم بالحكم. وبهذا أمر، بل هذا حقيقة الشرع والقدر"، إلى آخر كلامه فانظره.

وقال في المدارج: "ودفع القدر بالقدر نوعان:

أحدهما: دفع القدر الذي قد انعقدت بأسبابه -ولما يقع- بأسباب أخرى من القدر تقابله، فيمتنع وقوعه، كدفع العدو بقتاله، ودفع الحر والبرد ونحوه.

الثاني: دفع القدر الذي قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر التداوي، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان.

فهذا شأن العارفين وشأن الأقدار، لا الاستسلام لها، وترك الحركة والحيلة، فإنه عجز، والله تعالى يلوم على العجز، فإذا غلب العبد، وضاقت به الحيل، ولم يبق له مجال، فهنالك الاستسلام للقدر، والانطراح كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء، وهنا ينفع الفناء في القدر، علما وحالا وشهودا، وأما في حال القدرة، وحصول الأسباب، فالفناء النافع: أن يفنى عن الخلق بحكم الله، وعن هواه بأمر الله، وعن إرادته ومحبته بإرادة الله ومحبته، وعن حوله

وقوته بحول الله وقوته وإعانته، فهذا الذي قام بحقيقة " ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علما وحالا، وبالله المستعان" اهـ.

الثالث: أن ليس في التفكر في هذا منفعة، بل الواجب على كل أحد أن يأخذ بالأسباب ما استطاع مدة مكثه في الدنيا، كما قال الأول:

وكان على الفتى الإقدام فيها وليس عليه ما جنت المنون

وقال الآخر:

لأمر عليهم أن تتم صدوره وليس عليهم أن تتم عواقبه

وأحسن من ذلك كله قوله ﷺ: "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها".

روى البخاري في الأدب المفرد عن أبي نعيم قال: حدثنا حنش بن الحارث، عن أبيه قال: "كان الرجل منا تنتج فرسه فينحرها فيقول: أنا أعيش حتى أركب هذا؟ فجاءنا كتاب عمر: أن أصلحوا ما رزقكم الله، فإن في الأمر تنفسا".

وعن خالد بن مخلد البجلي قال: حدثنا سليمان بن بلال قال: أخبرني يحيى بن سعيد قال: أخبرني محمد بن يحيى بن حبان، عن داود بن أبي داود قال: "قال لي عبد الله بن سلام: إن سمعت بالدجال قد خرج، وأنت على ودية تغرسها، فلا تعجل أن تصلحها".

الرابع: قول القشيري: "إذا اعتقد أنه لا يقع إلا ما قدر الله تعالى كان إذعانا لا معاندة وفائدة الدعاء تحصيل الثواب بامتثال الأمر، ولاحتمال أن يكون المدعو به موقوفا على الدعاء، لأن الله تعالى خلق الأسباب ومسبباتها".

وأحسن منه قول ابن القيم في المدارج: "فطائفة ظنت أن القدر السابق يجعل الدعاء عديم الفائدة، قالوا: فإن المطلوب إن كان قد قدر فلا بد من وصوله، دعا العبد أو لم يدع، وإن لم يقدر فلا سبيل إلى حصوله، دعا أو لم يدع، ولما رأوا الكتاب والسنة والآثار قد تظاهرت بالدعاء وفضله، والحث عليه وطلبه، قالوا: هو عبودية محضة، لا تأثير له في المطلوب البتة، وإنما تعبدنا الله به، وله أن يتعبد عباده بما شاء كيف شاء.

وقول الطائفة الأولى: إن المطلوب إن قدر لا بد من حصوله، وإن لم يقدر فلا مطمع في حصوله.

جوابه أن يقال: بقي قسم ثالث لم تذكروه، وهو أنه قدر بسببه، فإن وجد سببه وجد، وإن لم يوجد سببه لم يوجد.

ومن أسباب المطلوب: الدعاء والطلب الذي إذا وجد وجد ما رتب عليه، كما أن من أسباب الولد: الجماع، ومن أسباب الزرع: البذر، ونحو ذلك، وهذا القسم الثالث هو الحق" اهـ.

الخامس: أن العبد لا يعلم ما قُدّر له، فلا عليه أن يطلب ما شاء من ربّه إذ كان الدعاء سببا من جملة الأسباب، فلعله أن يكون سببا قد علّق عليه وقوع محبوب له في أم الكتاب، والعاقل من يطلب معالي الأمور أبدا، كما قال شعيب بن يزيد:

وما أنا من يثنيه عما يرومه	شروع العوالي في الوغى والشدائد
إذا ما بذلت الروح في طلب العلا	فأدنى مراق أرتقيها الفراقد

وقال المتنبي:

إذا غامرت في شرف مروم	فلا تقنع بما دون النجوم

السادس: قول ابن الجوزي في صيد الخاطر: "رأيت من البلاء أن المؤمن يدعو فلا يجاب، فيكرر الدعاء، وتطول المدة، ولا يرى أثرا للإجابة، فينبغي له أن يعلم أن هذا من البلاء الذي يحتاج إلى الصبر، وما يعرض للنفس من الوسواس في تأخير الجواب مرض يحتاج إلى طب.

ولقد عرض لي شيء من هذا الجنس؛ فإنه نزلت بي نازلة، فدعوت، وبالغت، والبخل معدوم، فما فائدة تأخير الجواب؟! فقلت له: اخسأ يا لعين! فما أحتاج إلى تقاض، ولا أرضاك وكيلا.

ثم عدت إلى نفسي فقلت: إياك ومساكنة وسوسته، فإنه لو لم يكن في تأخير الإجابة إلا أن يبلوك المقدر في محاربة العدو، لكفى في الحكمة.

قالت: فسلني عن تأخير الإجابة في مثل هذه النازلة! فقلت: قد ثبت بالبرهان أن الله عز وجل مالك، وللمالك التصرف بالمنع والعطاء، فلا وجه للاعتراض عليه.

والثاني: أنه قد ثبتت حكمته بالأدلة القاطعة، فربما رأيت الشيء مصلحة، والحكمة لا تقتضيه، وقد يخفى وجه الحكمة فيما يفعله الطبيب من أشياء تؤذي في الظاهر، يقصد بها المصلحة، فلعل هذا من ذاك.

والثالث: أنه قد يكون التأخير مصلحة، والاستعجال مضرة، وقد قال النبي ﷺ: "لايزال العبد في خير ما لم يستعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي!".

والرابع: أنه قد يكون امتناع الإجابة لآفة فيك، فربما يكون في مأكولك شبهة، أو قلبك وقت الدعاء في غفلة، أو تزاد عقوبتك في منع حاجتك لذنب ما صدقت في التوبة منه، فابحثي عن بعض هذه الأسباب، لعلك تقعي بالمقصود.

والخامس: أنه ينبغي أن يقع البحث عن مقصودك بهذا المطلوب، فربما كان في حصوله زيادة إثم، أو تأخير عن مرتبة خير، فكان المنع أصلح.

والسادس: أنه ربما كان فقد ما فقدته سببا للوقوف على الباب واللجأ، وحصوله سببا للاشتغال عن المسؤول. وهذا الظاهر، بدليل أنه لولا هذه النازلة، ما رأيناك على باب اللجأ، فالحق -عز وجل- علم من الخلق اشتغالهم بالبر عنه، فلذعهم في خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه، يستغيثون به، فهذا من النعم في طي البلاء، وإنما البلاء المحض ما يشغلك عنه، فأما ما يقيمك بين يديه، ففيه جمالك.

وقد حكي عن يحيى البكاء أنه رأى ربه عز وجل في المنام، فقال: يا رب! كم أدعوك ولا تجيبني؟ فقال: يحيى! إني أحب أن أسمع صوتك.

وإذا تدبرت هذه الأشياء، تشاغلت بما هو أنفع لك من حصول ما فاتك، من رفع خلل، أو اعتذار من زلل، أو وقوف على الباب إلى رب الأرباب". اهـ

فهذا بعض ما عنَّ من الجواب على ما استشكله القوم، وفوق كل ذي علم عليم.